قصة تاجوج والمحلّق

أسماء أخري : ...

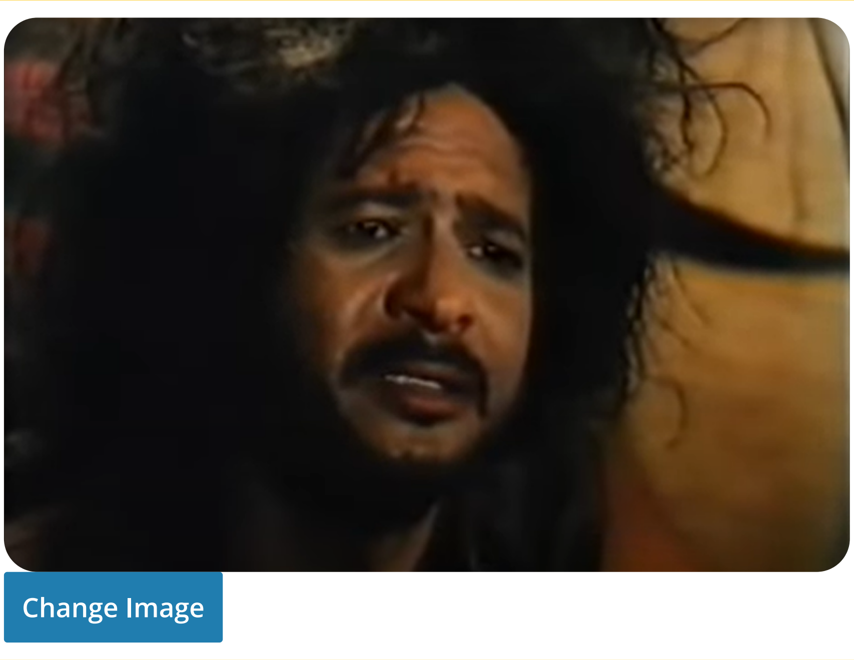

Change Image

مقدمة

يرجَّح أن الحكاية حدثت في منتصف القرن الثامن عشر، وليس هنالك تاريخ موثوق يحدّدها بدقة كافية. فقد حددت بعض الدراسات والمحاضرات أنها حدثت خلال فترة الاستعمار التركي المصري، بينما قال آخرون أنها تاجوج نفسها قد ولدت خلال العام 1921.

إنها قصة الرجل محلق الذي يحب ابنة عمه تاجوج ويقرر الزواج منها. ينجح في النهاية ويظل مسحورًا بها، يكتب الشعر عنها ويقدمه في التجمعات العامة. تغلبت حبه على أخلاقه وسلوكياته، مما أدى إلى طلاق محلق بشكل مؤلم.

القيمة الثقافية :

من أكثر القصص استلهاماً في مجال الآداب والفنون وخصوصاً فن المسرح، وقد رأينا فيما سبق كيف أن العديد من الكتب البحثيّة والتاريخيّة تناولت القصة وجمعتها بأساليب مختلفة مما يؤكّد القيمة الثقافيّة العالية لهذه الحكاية بجانب ما حوته من شعر أخاذ. ويُرجَّح أن تكون أوّل رواية أدبيّة سودانيّة كتبت في هذا المجال هي رواية (تاجوج) التي ألفها عثمان هاشم عام 1948. أما في مجال المسرح فقد نتجت معالجات النصوص المسرحية لهذه الحكاية عن استلهام أساليب حكيها الشفاهي وتعدده، فمنذ فترة الثلاثينيات وإلى يوم الناس هذا ظلّت حكاية تاجوج ملهمة للعديد من الأعمال المسرحيّة التي افتتحها الرائد المسرحيضربة خالد أبو الروس في مسرحيته (مصرع تاجوج والمحلق). حيث استفاد بقدر كبير من مضامين الحكاية الشعبية، وارتكز بشكل أساس على أشعار محلق وطلبه لتاجوج وموتها. ثم تناول الكاتب مبارك أزرق في مسرحيته (لغز تاجوج)، واستلهام الكاتب يوسف خليل لها في مسرحيته (محلق)، ومجدي النور في مسرحيته (تاحوج في الخرطوم) والكثير من الأعمال الأخرى. كما أخرجها للسينما المخرج السوداني (جاد الله جبارة) في فيلمه الموسوم (تاجوج) عام 1977

الممارسات المرتبطة :

تراث، أحاجي، رواية، مسرح وسينما.

يرجَّح أن الحكاية حدثت في منتصف القرن الثامن عشر، وليس هنالك تاريخ موثوق يحدّدها بدقة كافية. فقد حددت بعض الدراسات والمحاضرات أنها حدثت خلال فترة الاستعمار التركي المصري، بينما قال آخرون أنها تاجوج نفسها قد ولدت خلال العام 1921.

إنها قصة الرجل محلق الذي يحب ابنة عمه تاجوج ويقرر الزواج منها. ينجح في النهاية ويظل مسحورًا بها، يكتب الشعر عنها ويقدمه في التجمعات العامة. تغلبت حبه على أخلاقه وسلوكياته، مما أدى إلى طلاق محلق بشكل مؤلم.

التعبيرات الثقافية

أشعار وكتب ومسرحيات ورواية وفيلم سينمائي.

القابلية

التهديدات :

...

الموارد الطبيعية المستخدمة

...

المجال

التقاليد الشفوية
قصة

المجموعات المجتمعية والموقع

المجموعات المجتمعية

قبيلة الحمران. شرق السودان.

الممارسون

...

الغرض/الاستخدام

الأدب والحكايات والمسرح والبحث التاريخي الميداني.

المعرفة/المهارات

حكاية شعريَّة جيّدة السبك والبناء.

التعليم

انتقلت كتراث شعبي أولاً، لكن تمّ جمعها وكتابتها أكثر من مرّة بشكل أكاديمي ثم تمّ استلهامها في أعمال أدبية ومسرحيّة عديدة.

الأدوات والمعدات والخدمات

لغة/ شعر.

التاريخ

ليس هنالك قصة أو رواية تاريخيّة في السودان مختلف حول أصولها وتناولتها العديد من الدراسات والبحوث والأعمال الأدبيّة والفنيّة من زوايا مختلفة مثل قصة (تاجوج والمحلّق)، فقد أشارت العديد من الكتب التاريخية إلى هذه الحكاية، وأجمع بعضها أنها ضرباً من ضروب الفلكلور والخيال الشعبي، ونسبها البعض الأخر إلى واقعة تاريخيّة حدثت بالفعل، وقد اتّفقت بعض المصادر والروايات والبحوث الميدانيّة على شكل واحد للرواية وبنيتها الحكائيّة كما يرد ذلك مثلاً في إشارات (نعوم شقير) في كتابه (جغرافية وتاريخ السودان)، والباحث المُجد الطيب محمد الطيب في كتابه (تراث قبيلة الحمران)، و عبد الله الطيب في كتابه (الأحاجي السودانية) وكذلك كتبها المؤرخ السوداني محمد صالح ضرار والعديد غيرهم.

أجمعت مجمل هذه الكتابات على طلب محلق لتاجوج أن يراها كما ولدتها أمها أمامه كخيط رئيسي للحكاية وولجت أبواب الأدب والفن من هذا المدخل. وقد وقد حكى ضرار معاناته في جمع روايات حكاية تاجوج، قائلاً: واليوم سنة 1955، لم يبق من رهط تاجوج إلا رجل واحد اسمه محمد صالح همد وهم كسائر أهل البادية لا يوافقون على ذكر حوادث تاجوج أو رواية أشعار المحلق في مجالسهم. وفي كتابه عن التراث الشعبي لقبيلة الحمران يمضي الطيّب محمد الطيب في ذات الاتجاه قائلاً: أن "هذا الكتاب ثمرة عمل ميداني طفت فيه ديار الحمران مرات ثلاث. مارس 1968، فبراير 1969. نوفمبر 1969، تمكنت فيه من جمع هذه المادة بعد جهد ومشقة من أفواه الرواة، ولا أحسب أن انتزاع مسألة أو قصة أو رواية تاريخية من قبيلة الحمران بالأمر السهل الميسور إذ أنهم أقاموا حاجزاً نفسياً بينهم وبين قصة تاجوج ومحلق وكثير منهم يتحرج من ذكرى تاجوج يحسبانها عرضاً يجب صونه» (الطيب: يونيو 1970) كما أكّد ذلك بروفيسور محمد المهدي بشرى.

ومن روايات القصة المختلفة نوجز هنا رواية محمد صالح ضرار التي تفيد بأنَّ تاجوج بنت الشيخ محمد بن علي بن محلق بن محمد بن علي كانت فتاة فاتنة الجمال والسحر. فطلب المحلّق من والدته أن تتقدّم لخطبتها له من خاله. فامتثلت الأم وطلبتها من أخيها، ووافق الخال لكنه طلب مهراً غالياً من بن أخيه فأسعفان المحلق بواله ووفّر المهر المطلوب من فرط عشقه الشديد لها.

عاشت تاجوج تحت سقف الزوجية مع المحلّق يحفهما جمر العشق ويرفرف فوقهما ملاك الحب المتبادل، وكانا أسعد زوجين عرفتهما أرض القبيلة. لكن حبه المتقد لها كان هو سبب نهاية تلك الحكاية الأسطوريّة، إذ أكثر من التغزُّل بها شعراً ووصف محاسنها، حتى أشعل غيرة بقية الفتيان، فما كان من أحد أبناء عمومته، يقال له النور بن اللمم الا أن جاءه ونهره في ذكره زوجته في أشعاره حتى صارت غناء للفرد وللجماعة ومضغة تلوكها الألسن وعرف أسمها ووصفها القاصي والداني.

ومن هنا وقعت الطامة الكبرى، فقد ذهب حبها بعقله حتى لم يعد يدرك ما يفعل، فدعا ابن اللمم ليراها قائلاً: "تعال معي إلى الخباء كي أريك إياها في غفلة منها"، وكانت هذه الدعوة كافية لأن تظهر اللوثة التي أصابت المحلق من جنون حبه وولهه وأنه أصبح لا يعرف ما يصح وما لا يصح من القيم.

ورافقه إلى موقع لا تراه فيه، وشق له ثقباً في خبائهما ظنا منه أنها لم تعرف، ثم دخل عليها وطلب منها أن ترقص له متجرّدة من جميع ثيابها، فتعجبت من طلبه ولكنها صبرت وتجلدت وقالت سمعاً وطاعة، لكن في المقابل استحلفته تاجوج أن ينفذ لها طلباً واحداً بعد أن تستجيب لطلبه، فوعدها ظناً منه أن طلبها لن يتعدى ما تطلبه النساء من مقابل عادي في هذه الحالة.

فلما ضمنت منه تنفيذه لطلبها نفذت مطلبه، ولما انتهت من رقصها وغنجها كان الفرح قد تملكه وأسكره العشق والهيام فشكرها وطلب منها أن تذكر مطلبها، فنظرت إليه طويلاً وقالت له "طلبي واحد وهو الطلاق والفراق الأبدي بيني وبينك"، فصعق المحلّق حين سمع طلبها وأنزعج بن اللمم وولى هارباً من وراء الخباء بعد أن زرع فتنة وشقاق لا رجعة منه في خباء حب مجنون. إلا أن الأمر كان قد انتهى ووقع الطلاق، فلا رجعة فيه. وبذلك خسر المحلق زوجته التي هام بها، رغم كل محاولاته لاستردادها، فما كان منه إلا أن قضى نحبه كغيره من المحبين. وأخذت تاجوج ما كان بيدها من دثار وخرجت الى بيت أبيها والمحلق يتوسل اليها بكل عزيز لديها، ويتشبث بأطراف ثوبها راجيا مستجديا بدون جدوى وخجل النور عما بدر منه وتجنب المجالس والاجتماعات وقيل إنه رحل من القرية إلى قرية أخرى بعيدة عن قرية آل المحلق.

بلغ كلف المحلق بتاجوج مبلغاً عظيما حتى إن والد تاجوج أخذته الرحمة وأدركه الحنان على ابن أخته فرثى لحال العاشق وما آل اليه من شحوب وأصفرار وهزال وتدهور في الصحة اشتركت فيه أم المحلق بالبكاء والنحيب على ما أصاب وحيدها من آلام بسبب هجر تاجوج له، فاشترط الوالد على المحلّق أن يترك الشعر نهائياً وسيتكفل هو بالمقابل برد زوجته المحبوبة إليه. فقال المحلق يستحيل علي أن أترك الشعر لأنه أصبح حديثي وكلامي، بل شرابي وطعامي . فأشفق عليه الخال وقال له : لو أمتنعت عن الإنشاد ليلة واحدة رددتها اليك. فرضى وهو في غاية الفرح . فأقام عليه الخال الرقباء والشهود في الليلة الموعودة . وأظهر المحلق قدرة على أمتلاك شعوره حتى أنتصف الليل فصار يتقلب يمنة ويسرة كأن حية لسعته حتى مل مضجعه. فنهض وسار جيئة وذهاباً وقد عقد ذراعيه حول صدره وكان يشد عليه بهما خوفاً من أن ينفجر. ثم بدأ يقعد أحياناً ويقف أحياناً أخرى وقد تملكه ضيق شديد ولكنه كان يغالب نفسه ويشدد عليها الخناق. وكانت ليلة طويلة ساكنة هادئة إذ قعد حوله الشهود وهم يصغون لكل آهة خرجت من صدره وكل أنة رنت من أضلاعه

وكاد الصبح أن يلوح واستيقظ ديك مبكراً قبل الديوك الأخرى فصفق جناحيه ومد صوته طويلاً نافذاً في الأُفق فاخترق مسامع الجميع ووقع على أذني المحلق، فحرَّك صياح الديك شجونه الثكلى فلم يشعر إلا ولسانه يلهج قائلاً:

كر ياديك تصيح مَاكَ الْبَراكْ تعبانْ

ما شفت القبيل قامت من الدخان

الصادق يقول أرْيَلْ مع الغزلان

والكاضِب يقول خلقت بلا مصران!

فلما لاح الصباح أدى الرقباء شهادتهم وهي أن المحلق لم يقدر أن يمسك نفسه عن الانشاد حسب اتفاقه مع

خاله، فخرج المحلق وهام على وجهه في البادية ونيران الحب تأكل قلبه وتدنيه من القبر. ومنذ ذلك اليوم كان بدء تعاسته وسوء منقلبه في الحياة وصار كالمجنون يتنقل في أحياء القبائل من دار إلى دار ينشد أشعاره.

وبينما المحلق في شجونه وبلواه تهافت الخطاب على تاجوج بعد طلاقها من كل جهة وقبيلة بسبب ما أذاعه عنها المحلق من الجمال الفائق ولكنها ردتهم جميعاً ما عدا واحد هو النور بن اللمم لأنه كما قالت : رأى منها أثناء رقصها شيئاً ما كان يجب أن يراه لولا جنون المحلق فقبلت به فتزوجها.

أستاء المحلق لما سمع هذا النبأ وكظم غيظه خاصة وأنه كان يتمنى ألا يستطيع النور دفع مهرها الذي كان عبارة عن مائة بقرة صفرا ء فيها غرة بيضاء . ولكن الحظ ساعد النور فوجدها عند أحد أقاربه . ودبت الغيرة في صدر المحلق إذ لم يكن يطرأ على باله أنه هو الذي سيخلفه على مطلقته , ناسياً ما بينهما من إخاء وصداقة . وقال المحلق عند ذاك يظهر عدم أهتمامه بالامر وهو يكذب على نفسه. أستمر المحلق في طوافه ببادية الحمران مؤملا أن يعثر يوما ما على النور بن اللمم الذي لم يحسن ضيافته ليلة مبيته خلف خبائه حتى عثر عليه وكلاهما على ظهر فرسه . فطلب المحلق من النور أن يصارعه , فرفض النور , فهجم عليه المحلق ونزعه من سرجه على الأرض وتصارعا فسقط النور على الأرض وقام من وقعته مستاء , وأستأنف المصارعة فسقط ثانيا بعد عدة جولات وملاحمات ثم هوى بعدها النور الى الارض فخجل من نفسه , ونفض عن ملابسه العفار , وقام ليركب فرسه . ولكن المحلق قص ذيل الفرس , وقطع أذنيه وهذا دأب كل من ينتصر على خصمه من فرسان بادية البجة , وقال له : يا نور هل تحمل مني رسالة الى أبنة العم تاجوج . فأجاب نعم . فقال له:

قل لصافية العـلامة

بين قوزين طارت حمامة

الضنب والإضنين كرامة

فلما وصل النور داره أخبر تاجوج بالرسالة . فأجابته : ويحك هل صارعت المحلق فصرعك؟ فقال " نعم وكيف عرفت ذلك . " قالت " أخزاك الله . أما تخجل يا هذا من نقل فضيحتك إلي . والله لن أرتضيك بعلاً لي بعد اليوم . ورحلت عن منزل الزوجية الثاني إلى غير رجعة. في نهاية القصة يموت المحلّق من فرط هيامه وحبه لتاجوج وتفيد بعض الحكايات أن تاجوج ماتت مقتولة بسبب الفتنة التي أشعلها جمالها الأخاذ. . لكن، حتى موت تاجوج في المصدر الشعبي ارتكز على مقصد الحمران للحج ضمن قافلة واشتباكهم مع الهدندوة في الطريق إلى سواكن، وهي الحادثة التي قتلت فيها تاجوج، وهي متفق عليها عند نعوم شقير في كتابه (جغرافية وتاريخ السودان)، والطيب محمد الطيب في كتابه (تراث قبيلة الحمران)، و عبد الله الطيب في كتابه (الأحاجي السودانية) وحتى موته اتفقت عليه المصادر بأنه توفي وسط أهله.

Image(s) source :

Link(s)